الفصل العشرون

غريزة التقليد

لكل حيوان استعداد خاص فى التقليد، فالقرد يوزعه استعداده أن يقلد الحركات البدنية، والببغاء يقلد النطق. وبالتقليد استعان العلماء فعلموا الطيور المغردة ما شاؤوا من النغمات، فوضعوها بحيث ترى صورتها فى مرآة، ووضعوا وراء المرآة آلة صداحة، فيخيل إلى الطائر عند عزفها أن طائرا آخر يغنى فيهم بمحاكاته. والحمام – وقد اعتاد تناول الحب الصغير حتى إنه لم يعد قادرا على ازدراد الحب الكبير ولو أضناه الجوع – يجتمع مع الحمام الذى يتغذى بالحب الكبير فيندفع إلى تقليده، وهذا هو سر تقليد النظير.

إن الإنسان فى طوره الأول قلد الطبيعة والحيوان فيما سمع ورأى وصنع، فسمى طائفة من الأفعال بأصواتها، وقد ورد بين ألفاظ اللغة العربية حفيف الشجر، وخشخشة الثوب الجديد، وقعقعة السلاح، وصلصلة الحديد، وخرير الماء، وصرير القلم، وهرير الكلب، ودق الباب، وطنين الذباب، وكذلك بين ألفاظ اللغة الانجليزية هابل بابل للنرجيلة، وتريك تراك لنرد تلد المغاور فبنى البيوت، ورأى الزنبار والهدهد يبنيان أعشاشهما فطلى بيته بالجص، ورأى الذئب يقع فى الغنم فتعلم الصيد، وقلد الليث فنسج الشباك لاصطياده، وشاهد الحبة تسقط على الأرض فتنبت وتنمو حتى تصير شجرة، فقلدها بالزراعة. وقلد زخارف الطبيعة فنقش على الخشب والحجر ما راقه من النبات والزهر والحيوان والإنسان. وقلد

تغريد البلبل فغني ، وقلد أخاه الإنسان فى الترتيل والشعر والخطابة و الملبس والصناعة وهكذا.

التقليد والحاجة إليه:

يبتدئ الطفل بالتقليد فى الشهر الرابع من عمره، ويزداد بها غراما كلما تقدمت سنه لهيامه بتعرف الموجودات التى يجهلها، وسبيله الواحدة لذلك هى جنوحه لمحاكاة النظراء، وتقليد كل ما له تأثير فى نفسه، يرى الفرس تعدو فتدفعه غريزة التقليد إلى ركوب عصاه. ويرى القطار فيجتمع مع إخوانه ويقلدونه.

ولحاستى السمع والإبصار مجال عظيم فى التقليد، لأنهما ينقلان إلى المخ أثر المحسّات ذات الوقع الحسن فيقلد بصورة طبق الأصل.

واعلم أن ضرورة الاجتماع تلجئ الإنسان إلى اقتفاء أثر سلفه ومعاشريه وتقليدهم ليحافظ على العادات القومية، وليتآزر بهم فى قضاء مصالحه.

كان عمر بن الخطاب ورعا يحب المتقشفين ، استدعى يوما أبا موسى الأشعرى ومن يليه من العمال للمثول فى حضرته، فانطلق أحدهم وهو الربيع بن زياد الحارثى إلى عمر، وسأله عما يروج عند عمر وينفق عليه، فأشار إلى خشونة العيش، فمضى ولبس جبة صوف وعمامة وخفا، وحضر بين يدى عمر فى جملة العمال. فصوب عمر نظره وصعده فلم يقع إلا عليه، فأدناه وسأله عن حاله، ثم أوصى أبا موسى الأشعرى به. فهذه الخطوة ما جاءت إلا من رائع تأثير التقليد، وقد ورد: " الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف "، وفى المثل: " لولا الوئام، لهلك الأنام ".

وإن أدنى أنواع التقليد ما حوفظ به على الأصل بدون تصرف ولا إتقان على النحو الذى يتبعه صناع الفخار فى قنا. عادة ألفتها الأمم الساذجة ووضعتها موضع الاحترام. زرت مصنعهم يوما، ولما رأى بعضهم أن الشك داخلنى فى مقدرتهم الصناعية عمد إلى طين وسألنى أن أقترح شيئا يصنعه، ثم انبرى فصنع طستا

وإبريقا يجمعان إلى دقة الصنعة رقة الذوق. ثم أعادهما إلى عجين كما كان، ولم يرد أن يدخل على ما ورثه من أسلافه شيئا خوفا عليه، كأن بدعة الصناعة من البدع الدينية التى لا يسوغ إدخال التعديل عليها.

وإذا وصفنا التقليد بأنها من دعائم الحضارة وجب علينا أن نفسر ذلك بضرورة الاطلاع على المقلد وبحثه وتمحيص أدلته، لتندفع النفس إلى تقليده بوازع صادق. والتقليد روح توثق الرابطة بين الفرع وأصله، ومن هنا نشأت محبة المحافظة على القديم. وقد تغلو الأمة فى احترام قديمها فتقتصر على ما أوصلته إليها الوراثة وتغض الطرف عن التغيير الذى تدعو إليه الطبيعة وأطوارها، فتكسد بضاعتها، وتبور صناعتها، ويسل عليها الدهر سيف الحرمان، وتبطش بها عوامل الفناء.

ومن أمثلة الجمود والغلو فى حب القديم والتحيز لمذهب " ليس فى الإمكان أبدع مما كان " ما روى أن أحد الهنود الذين يحرمون قتل الحيوان وأكله، قد باحثه عالم ألمانى وأراه بالعيان نقطة من الماء الذى يشربه تحت المنظار، فتخيلها لكبرها غديرا من الماء، وقد اكتظ بالهوام السابحة فيه، فلم يقتنع الهندى بما رأى بعينه، وسخر بقول هذا العالم، وكسر النظام إصرارا على الباطل وعنادا للحق.

وقال كمبيري: " إن طالبا تعلم فى أديار القرون الوسطى وصل إلى سمعه كشف كلف معتم فى كرة الشمس فدهش وقال: علم الله لو أنك قرأت بإمعان **كتب أرسطو** لوجدته وصف الشمس بأنها كوكب لا يعترى نوره ذبول. فما أبعد مسافة الخلف بين هذه الحقيقة ومزاعم المستكشفين! عليهم أن ينظفوا عدسة المنظار من أثر الغبار، ثم ينعموا النظر لعلهم يبصرون الحق جليا. أما إذا أخطأ بصرهم وشاهدوا ما شاهدوه أولا، فليعلموا أن الكلف الذى رأوه إنما هو سحابة تغشى أعينهم ". فما بال طالب العلم فى الجيل الثانى عشر من الميلاد قد تمسك بقول أرسطو نابغة القرن الرابع قبل الميلاد، ولم يحفل بتجارب ستة عشر جيلا ترقى فى غضونها العقل الإنساني، وتقدم العلم، وكشفت التجارب عن حقائق كانت

مستورة! ما باله نظر إلى المشاهد وفحصها بعقل غيره، وأهمل عقله من النظر، وعاقته الثقة بالمتقدمين عن استجلاء الحقائق، ولو كانت أعيننا تراها، والمراصد الفلكية تساعدها! أليس يدل ذلك على أنه اكتفى من البحث بالتقليد العمياء، وقضى على مواهبه، وعطلها من التنقيب.

وللمثال الحسن تأثير رائع فى تثقيف الطباع، فالطفل الذى ينشأ بين أبوين فاضلين يقلدها، ويقتبس منهما لطيف القول ودقة الذوق وحسن الصنع، وهو بعينه إذا عاشر منحطى الأخلاق سرت إليه روح العدوى من طريق التقليد. نعم للقدوة الصالحة تأثير رائع فى النفوس. ومما روى أن واشنطون رئيس الأمم المتحدة افتتنوا به، فتفتحت لهم أكمام الفتوح.

ولما قام نذير الحرب بين الممالك المتحدة وفرنسا، استعار خلفه لنفسه اسم واشنطون وجرى على سننه، فسرت فى العروق روح الحمية والإقدام، وكان النصر حليف جيشه.

التنويم المغناطيسى - الاستهواء - يوقظ غريزة التقليد من سباتها فيخضع المنوم لإرادة المنوم، ويطيعه بلا شعور، ويقلده بلا تبصر؛ وحوادث التحقيق الجنائى برأت شركاء بعض المجرمين، لأنهم كانوا عند اقتراف الجرائم مسلوبى الإرادة.

لا نريد أن يحترف المعلم مهنة الاستهواء، وإنما نريد أن يكون كبير النفس، حسن الطوية، نافذ الرأي، قدوة فى القول والفعل. ولعلك عرفت قصة الأعرابيين النجديين نابر ودابر. كان نابر صالحا تقيا، وكان دابر شريرا سمجا، فسنحت الفرص يوميا لنابر أن يركب جواده وكان عزيزا لديه، فمر فى طريقه على دابر وقد لبس ثياب الضعف والمسكنة، فلما رآه رق لحاله وترجل وطلب إليه أن يركب الجواد. وعندما تسلم دابر زمامه - وكانت نفسه تتطلع من قبل إلى استلابه - ساقه مسرعا، تاركا مالكه يتفطر فؤاده حزنا على جواده المغصوب، وجمله المسلوب؛ فناداه نابر: " ألا فاقترب منى - أيها الأخ - ولا أريد أن أشق عليك باسترداد

جوادي، غير أن عندى لك نصيحة ولا أخالك إلا عاملا بها، إنى أرجو ألا تذكر لأحد ما فعلت معي، خشية أن تشح يد الكرماء، عن بذل العطاء، إذا هم سمعوا هذه الإساءة إزاء فعل الجميل "؛ هنالك صعق دابر من هول جريرته، وندم على ما فرط منه، ورد إلى صاحبه جواده، فما أبلغ تأثير هذا الكريم، فى نفس اللئيم!

ولنا من أبى نصر الفارابى مثال حسن يدلنا على ما كان له من روعة التأثير فى عقول جلسائه. فقد نبغ فى درس اللغات حتى عرف منها أكثر من سبعين لسانا، وزاد فعرف كيف يخلب عقول الناس ويملك زمام عواطفهم بإرادة صادقة وبراعة فى إيقاع الألحان الموسيقية. حضر يوما مجلس سيف الدولة وكان المغنون يعزفون فخطأهم الفارابي، ثم اجترأ وتناول المعزف وركب عيدانه وعزف فضحك الحاضرون جميعهم، ثم ركبها تركيبا آخر وعزف بها فبكوا جميعا، ثم ركبها تركيبا ثالثا وعزف فناموا حتى البواب، ثم تركهم وانصرف.

ويدلك على حب روسو للطبيعة المجردة من زخارف الصناعة أنه كلف تلميذه أن يحاكيها بالتصوير من دون نظر إلى المبادئ التى وضعها علماء الفن. وهؤلاء يفضلون البدء بمحاكاة البسيط من الأمور كالخط المستقيم وأوضاعه وأشكاله، حتى إذا تم لك ذلك ركب منه ما شاء من بدائع الكون. وأدنى درجات الرسم ما جاء من باب المحاكاة البحتة بحيث لا يسمح للطفل أن يزيد عليه شيئا، ليختبر جولان نظره، واعتداده يجعل الصورة مطابقة الأصل، واعتماده على تمرين العين على النسب بين بعض الأجزاء وبعضها وبينها وبين الكل. وتلى تلك درجة يراد بها تمرين الحافظة والذاكرة، كأن تعرض الشكل على الطفل، حتى إذا شبعت منه نفسه لفت عنه نظره وانطلق يجمع فى رسمه ما عسى أن يكون وضعه وشكله، وهذه الدرجة تختلف باختلاف قدرة ملاحظته على ضبط المرئيات.

فى ليلة عاشوراء اعتاد الفرس أن يحتفلوا بموكب لهم فى مصر حدادا على وفاة الحسين بن علي، وفى أثناء مرورى شاهدت رجلا يجول بين المارة شاخص العينين،

مستطلعا حركات الواقفين وأزياءهم، مترقبا أوضاع المشاعل التى يسير القوم فى ضوئها، وإذا هو مصور توجهت نفسه إلى درس عناصر هذا المشهد، ليفرغه فى قالب الرسم من ذاكرته.

وفوق هذه الدرجة مرتبة من أحرزها فقد برع وأصبح من كبار المصورين، وتعتمد هذه المرتبة على قدرة الخيال على تصوير المعانى وإلباسها ثوبا حسيا يوحى إلى الذوق اختيار ما يكون له حسن الوقع وعميق الأثر، فتراه يقرأ الحادثة التاريخية، ثم يرقمها على الورق برسم يشف عن معانيها، ويجمع من رموزها طرفا لا يستعصى على اللبيب فهمها. يستطيع الرسام والحفار تصوير المعانى الحقيقية والخيالية كما يستطيع الكاتب أن يصورها، غير أن الأولين يمتازان بأن لغتهما يفهمها الناس على السواء. ومن بارع الخيال الذى يتم عن الحقيقة أن نائما صحا فى صباح يوم مشرق، فاختار لهذا المعنى تمثالا نقشه على صورة صبى غائص فى نوم عميق.

وابتكر مصور مشهدا للبؤس فتخيل قافلة تسير فى الصحراء وقد اشتد المرض برجل منها فتخلف عنه. غير أن رفقاءه قبل أن يتركوه قيدوا جمله بجواره، فلم يلبث الرجل أن مات، أما الجمل فقد تقطعت أحشاؤه من ألم الجوع والعطش واشتداد الحر، وأقبلت إليه ضوارى الوحش وكواسر الطير وصارت تتدانى منه كلما لحظت فيه الضعف، والجمل المسكين ينظر إليها نظرة الخائف، ويستسلم لبطشها استسلام الضعيف، تذوب نفسه حسرات عند ما يلوى رقبته ليراقبها ولا يستطيع دفع الشر. كان تيمورلنك أعور أعرج، وكلما رأى صورته على حقيقتها استشاط غيظا وأوقع الأذى براسمها، فرسمه مصور مهيئا للصيد، جالسا على إحدى ركبتيه، مصوبا بندقيته، ناظرا إلى الهدف بعين واحدة، فكانت براعته فى اختيار هذه الفرصة من دواعى استحسان الصورة بوضعها الحقيقي.

وقد طالب معلم الإنشاء أن يقلد الطفل النماذج الأدبية بين منثور ومنظوم،

يحفظها ويستذكرها ويرتلها ويمثلها مقلدا واضعها؛ ثم ينتقل به درجة فيطالبه بتقليد معناها متصرفا فى ألفاظها وتراكيبها بشر منظومها أو نظم منثورها. ومن مباشرة هذه المعانى وإبداء القدرة على أدائها والتصرف فيها على النهج الذى يرتضيه البلغاء ولا ينفر منه الأدباء، يحصل للخاطر موهبة، وتتربى عنده ملكة الإنشاء، وبها يسترسل فى الكتابة، وتأتى إليه المعانى متدفقة بدون تكلف.

obeikandl.com

obeikandl.com